مؤثرات الحياة الثقافية في الجزائر خلال القرن 9 هـ(15م)

أ - تمهيد:

اصطلح المؤرخون الغربيون عند تقسيمهم للعصور التاريخية أن العصر الحديث يبتدئ بعام 898هـ (1492م) وينتهي بالثورة الفرنسية عام1204هـ (1789م) ، فجعلوا بذلك من عام 1492م معلم تاريخي لنهاية العصور الوسطى وبداية الحديثة، كونه جرت فيه أحداث هامه جدا بالنسبة للتاريخ الأوروبي والعالمي على السواء: ففي هذا العام انتهى الوجود السياسي للعرب المسلمين في إسبانيا، بسقوط آخر معاقلهم وهو (غرناطة) بيد الأسبان، وبذلك انحسر نهائيا المدّ العربي الإسلامي عن الغرب الأوروبي، ذلك شغل حقبة طويلة من العصور الوسطى. وفي العام نفسه توصل "كريستوف كولوبو" (Christophe Colomb) إلى اكتشاف قارة جديدة هي (القارة الأمريكية).

بينما يرى بعض المؤرخين في عام 857هـ (1453م) وهو تاريخ سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين المسلمين، نهاية للعصور الوسطى بدلا من عام 1492م باعتبار أنه العام زالت فيه الإمبراطورية الرومانية نهائيا، بعد اندثار قسمها الشرقي أو البيزنطي، بعد أن قضي على قسمها الغربي في عام 476م، الذي اصطلح على أنه نهاية العصور القديمة، كما أنه في عام - 1453م – استفحل فيه خطر المد الإسلامي العثماني الذي اجتاح شرقي أوروبا، وأخذ يهدّد عواصمها.[1]

مهما اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ بداية العصر الحديث، فإن القرن 9هـ (15م) هو القرن الذي يمثل الانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديثة، من عصر الظلام الذي كان يطلق على العصر الوسيط في التاريخ الأوروبي لما تميز به على امتداد عشرة قرون كاملة من التخلف والمعاناة والجهل والفقر، في وقت كان فيه التاريخ الإسلامي هو عصر الازدهار والعلم والانتصارات بالنسبة للحضارة الإسلامية، بل العصر الذهبي لها.[2]

لكن منذ القرن (6هـ) 13م، مع سقوط دولة الموحدين عام 669هـ (1269م) كمعلم تاريخي على حدّ تقسيم المفكر الجزائري "مالك بن بني" بين تاريخ ازدهار الحضارة الإسلامية وانحطاطها التي أطلق عليها عصر (إنسان ما بعد الموحدين). [3] بدأ العالم الإسلامي ومنه المغرب الإسلامي يعرف مرحلة الضعف والانحطاط مع الدويلات المستقلة التي حلّت محل دولة الموحدين، المتمثلة في: الدولة الحفصية في تونس عام 627هـ (1230م)، ودولة بني زيان (عبد الواد) في تلمسان ونواحيها بالمغرب الأوسط عام 623هـ (1235)م، ودولة بني مرين في

فاس بالمغرب الأقصى التي قضت على خلافة الموحدين نهائيا عام 669هـ (1269م)، ومملكة غرناطة آخر ما بقي للمسلمين من ممتلكات في إسبانيا، والتي استقل بها بنو الأحمر (بنو نضر) عام 635هـ (1238م).[4]

ب – مؤثرات الحياة الثقافية في الجزائر خلال القرن 9 هـ (15م):

1 – المؤثر الأول: الاضطرابات السياسي

في البداية يجب الإشارة إلى أن الحدود السياسية للجزائر حتى نهاية القرن 9هـ (15م) لم تكن مضبوطة وثابتة، وكلمة (الجزائر) لم تكن تطلق إلا على مدينة ساحلية صغيرة قليلة الأهمية في المغرب الأوسط، ولم تكن تعني (القطـ ر الجزائري) المعروف عندنا حاليا. وحتى عبارة (المغرب الأوسط) التي أطلقها العرب المسلمون لم تكن بالضبط تعني حدود الجزائر اليوم، وهو الحال الذي ينطبق على عبارتي (المغرب الأدنى) و(المغرب الأقصى) فهذه العبارات كانت مجال حدودها الجغرافية تتسع وتضيع بتعاقب الدول والإمارات الإسلامية التي تعاقبت على حكم منطقة المغرب الإسلامي. فمدلول كلمة (الجزائر) لم يعرف إلا منذ القرن 10هـ (16م) مع حكم العثمانيين. [5] الذين حدّدوا لها نطاقها الجغرافي الذي امتد آنذاك من أدرار إلى القالة ومن الجزائر إلى بسكرة وورقلة.[6]

وهي الفترة أيضا؛ التي اكتمل فيها كيان الشعب الجزائري، وعرفت فيها البلاد الجزائرية مقومات الدولة الخاصة، بعد أن ظلّت هوية الجزائر الإقليمية غير واضحة المعالم أثناء انقسام دولة الموحدين وظهور الحفصيين والزيانيين والمرينين. وبروز كيانها السياسي بالخصوص في اختيار عاصمة قارة لها (هي مدينة الجزائر)، ورسم حدود معين، ووضع أجهزة إدارية وسن أنظمة اقتصادية وإقرار أوضاع اجتماعية وانتهاج علاقات سياسية خارجية تتلاءم وأوضاع البلاد الجزائرية آنذاك، وهو ما تؤكده الروابط الوثيقة مع البلاد العربية والبقاء ضمن الوحدة الحضارية والفكرية للخلافة الإسلامية التي تمثلها الدولة العثمانية.[7]

مهما يكن من أمر؛ فإن الخريطة السياسية للقرن 9هـ (15م) تثبت أن المغرب العربي بمفهومه الحالي كان مقسم تحت نفوذ ثلاث دول رئيسية متنافسة هي: المرينية والزيانية والحفصية، وأنه منذ بداية من منتصف القرن 8هـ (14م) حسب ذكر عبد الرحمن بن خلدون (732– 808هـ/1332- 1405م) صاحب "ديوان العبر" وأستاذه المقري التلمساني (ت: 759هـ/1359م) صاحب "الرقائق والحقائق" أن البلاد الإسلامية عمها الضعف والانحطاط، ومنها

المغرب الإسلامي الذي نال هو الأخر حظه من التّدهور، ولم تتغير حالته طيلة القرن 9هـ، وبدا ذلك جليًّا في ضعف الملوك وتنمُّر القبائل التي كانت تتمتع بشبه استقلال في مناطقها، وكانت كلّما أحست بضعف الملوك إلاّ وبالغت في تمردها وتحدّيها ومطالبها، إذ كان لا يهُمها إلا مصالحها القبلية والعشيرة، فعندما فُوجئت (الجزائر) بالهجمات الاسبانية لاحتلالها كانت مجزأة إلى خمسة عشر جُزءًا كلُّ جزء تهمين عليه قبيلة عربيَّة وبربريَّة، فقبيلتا (سويد) و'بني عامر) الشهيرتان كانت تسيطران على معظم سهول منطقة وهران، وكان (آل المقراني) يتصّرفون في القبائل الصغرى (وادي بجاية)، وكانت قاعدة إمارتهم (قلعة بني عباس)، ثمّ حولت إلى (مجَّانة)، والقبائل الكبرى تحت تصرف (آل ابن القاضي) ومقر إمارتهم (جبل كوكو)، ومدينة الجزائر وسهول متيجة تحت تصرف قبيلة (الثعالبة)، ورئاستهم آنذاك في (آل بن التومي)، كما كانت كلّ من الذواودة وسد ويكش وبني تيغرين تُهيمن على ناحية لا تنالها في تصرّفاتها مع أحكام الملوك.[8]

بالإضافة إلى التطاحن الإقليمي بين الحفصيين والزيانيين والمرنيين، كان هناك تطاحن عائلي مرير داخل كل دولة من هذه الدويلات، فكانت هذه العائلات في خصومة مستمر على الملك والنفوذ، فكان الابن ضد أبيه، والأخ ضد أخيه وابن العم ضد ابن عمه، والفرع الفلاني ضد الفرع الفلاني، فكثرت الفتن والحروب وسادت الفوضى وعمّت اللصوصية، وتفشى أللأمن.[9]

2 – المؤثر الثاني: الغزو الصليبي

منذ أواخر القرن 9هـ (15م) اشتد الانقسام الداخلي ببلاد المغرب الإسلامي وما صاحبه من اضطراب اجتماعي وتراجع اقتصادي، وانكماش ديموغرافي وتراجع الحواضر، وتحول قسم من السكان إلى حياة البداوة، فاستقلت الأقاليم الداخلية وبعض المدن الساحلية بشؤونها ولم تعد سلطة الدول الإقليمية تتجاوز العواصم والجهات القريبة منها، وظهر للعيان عجز دولة الحفصيين بتونس ودولة الزيانيين بتلمسان ودولة المرينيين بفاس عن وضع حد للانهيار، الذي سمح للغزو الصليبي بقيادة الأسبان والبرتقال الذي كانوا في حروب متجددة مع المسلمين منذ بداية هذا القرن عندما هاجموا شواطئ المغرب الأقصى وتمكن من احتلال بعض مدنه الساحلية كـ"سبتة" سنة 817هـ (1414م) و"القصر الصغير" سنة 862هـ (1458م) ثم "تطوان" و"طنجة"،[10] إلى أن أنهوا الوجود الإسلامي بالأندلس وقضوا على آخر دولة به التي كان يحكمها "بنو الأحمر" بالاستيلاء على غرناطة 898هـ (1492م) فخضع لسلطتهم الكثير من المراكز والمدن الساحلية.[11]: مليلة عام 1497م، والمرسى الكبير في سنة 1505م، وفي عام 1509م نزلوا بوهران وفي عام 1510م استولى على "بيدرو نافارو" (Pedro Navarro) وعلى مدينتي بجاية وطرابلس. وأمام الانتصارات الإسبانية الصليبي ة، اعترفت مدينة الجزائر بسيادة "فردناند الكاثوليكي"

(Ferdinand le Catholique) وتنازلت له عن إحدى الجزر الواقعة في الشمال الغربي من مدينة الجزائر، وحوّل الأسبان هذه الجزيرة إلى قلعة سموها "البينون" (Le Pegnon) ومنها صاروا يراقبون حركة البواخر، وهو ما جعل الجزائريين يضطرون آنذاك، لسحب بواخرهم إلى شاطئ باب الوادي على بعد ميل إلى الغرب من مدينة الجزائر.[12] كما استولوا على مدينة هنين بالقرب من مدينة تلمسان عام 1313م، وتونس عام 1535، ولم ينهي هذا الوضع الخطير الذي كان يهدد بلاد المغرب العربي إلا بفضل تجنيد الفقهاء والمرابطين للسكان، للتصدي للتوسع الصليبي الإسباني بالسواحل، وقد أدى ذلك إلى ظهور دولة السعديين بالمغرب الأقصى عام 1509م، وإلى نجاح الأخوين بربروسة (عروج وخير الدين) في تصفية المراكز الإسبانية في كل من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس وباسترجاع حصن البنيون بالجزائر عام 1529م وطرابلس الغرب عام 1551م وحجر بادس 1553م عام وبجاية عام 1555م وتونس 1574.[13]

3 – المؤثر الثالث: هجرة العلماء

كان للاضطرابات السياسية التي كان يعرفها المغرب الإسلامي وسوء الأحوال الاقتصادية أثرها الوخيمة على الحياة الثقافية في الجزائر ، جعلت بعض العلماء يهاجرون إلى الشرق والمغرب، كون بعضهم ربط مصيرهم ببعض الأمراء من أمثال؛ أحمد بن حسن بن علي المعروف ابن قنفذ القسنطيني (ت: 809هـ/ 1406م) صاحب كتاب "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"[14] الذي ألفه للأمير أبي فارس الحفصي، وأيضا محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي (ت: 788هـ/ 1494م) الذي ألف "نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان" للسلطان أبي عبد الله محمد بن أبي تاشفين الزياني، كما كان الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحوضي (ت: 910هـ/1505) صاحب تأليف "نظم العقائد" الذي كان يسخر موهبته الشعرية لخدمة السلطان أبي عبد الله الزياني وغيرهم، بينما هاجر بعضهم فخسربهم بذلك الحياة الثقافية في الجزائر من أمثال هؤلاء ؛ العالم الجليل أحمد بن يحي الونشريسي (ت: 955هـ/1549م) الذي هاجر إلى فاس، والمفكر محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ/1503م) الذي هاجر من تلمسان إلى السودان القديم، بينما هاجر آخرون إلى المشرق وتوفوا هناك من أمثال؛ أبي الفضل محمد المشدالي البجائي(ت: 856هـ/1461م) وأحمد بوعصيد البجائي (ت: 865هـ/ 1459م) وأحمد بن يونس القسنطيني (ت: 878هـ/1474م) وأبي القاسم المعروف بابن سالم الوشتاني القسنطيني (ت: 847هـ/1443م)، وأبي زيان ناصر بن مزني البسكري (ت: 823هـ/1420م) ومحمد بن أحمد المعروف بابن صعد التلمساني (ت: 1495/901م). بينما انزوى بعضهم وفضل العيش عيشة الزهد والابتعاد عن شواغل الحياة وأهوائها كما فعل عبد الرحمن الثعالبي (ت: 875هـ/1470م) وتلميذه أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري (ت:

884هـ/1476م) ومعاصرهما محمد بن يوسف السنوسي (ت: 895هـ/1490م) الذين اختاروا حياة العزلة والتصوف.[15]

4 – المؤثر الرابع: هجرة الأندلسيين إلى الجزائر

من المؤثرات أيضا في الحياة الثقافية أيضا خلال القرن 9هـ (15م)؛ هجرة الأندلسيين التي كان لها أثر كبير على المجتمع الجزائري من جميع النواحي، وهي الهجرة التي بدت أكبر موجة من موجات هذه الهجرة التي جاءت بعد انتشار الفزع والرعب بعد كارثة الأندلس وسقوط غرناطة أواخر هذا القرن، والتي كانت الجزائر لها علائق وثيقة ومتينة فزيادة على العلائق السياسية التي كانت بين البلدين ابتداءً من القرن الثالث الهجري حيث لم ينس عبد الرحمن الداخل للجزائريين فضلهم عليه حين آووه وسهلوا له العبور إلى الأندلس، فإن كثير من أعلام الأندلسيين استوطنوا بعض العواصم الجزائرية كبجاية وتنس وتلمسان وعنابة ابتداءً من القرن الخامس الهجري، ولحقت بهم البقية الباقية بعد سقوط الأندلس.[16]

كانت طبقات المهاجرين الأندلسيين تختلف ثروة وثقافة وجاهًا، ففيهم أبناء الشعب البسطاء وأحفاد الملوك الوجهاء، وفيهم أصحاب الصنائع وأصحاب القلم. وهكذا كانت المأساة الإنسانية في الأندلس خيرًا وبركة على مجتمع أقطار المغارب عامة، حيث ظهر تأثيرهم الثقافي في التعليم والموسيقى، الميدانان اللذان أصبح حكرا على الأندلسيين، ولاسيما في الحواضر، التي نقلوا إليها طريقتهم الخاصة بهم، ففي ميدان التعليم؛ لم يقتصر تعليم الأطفال على حفظ القرآن كما كان الحال قبلهم بل أضافوا إليه تعليم الحديث والقواعد العامة لمختلف العلوم وتدريس بعضها، كما علموا روايات القرآن وأنواع قراءاته. كما نشر الأندلسيون خطهم حتى ساد على خط الأقطار المغارب، أما التعليم العالي فكان يعطى في المساجد والزوايا ودُور العلماء ومجالس المناظرة، وكان يعهد به إلى كبار العلماء. إضافة إلى الأماكن العامة كانت السلطة تعين للمداس كبار العلماء الأندلسيين وغيرهم وتجري عليهم المرتبات، ولكن التعليم العالي عندهم كان يعتمد في أغلب الأحيان على النقل والرّواية لا على الرأي والاجتهاد. وقد شمل التأثير الأندلسي أيضا ميادين النحو والأدب والعلوم والموسيقى، فكان هناك علماء مختصون في كل فن من هذه الفنون ألفوا فيه، وأثروا في الأجيال اللاحقة.[17]

5 . المؤثر الخامس: حواضر العلم

بالرغم من الحياة السياسية التي كانت تعيشها الجزائر خلال القرن 9هـ (15م) فكانت هناك مدن تنمو بعدد سكانها وتشع بمدارسها ومساجدها ثقافة يتغذى منها المجتمع روحيًّا وعقليا، ومن هذه المدن نذكر تلمسان وقسنطينة وبجاية ومازونة ووهران والجزائر وعنابة وبسكرة، ففي كل مدينة من هذه المدن عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس والزهد

والتصوف. ومن هذه العائلات عائلة المقري والعُقْباني في تلمسان، وعائلة ابن باديس والقنفذ في قسنطينة، وعائلة المنجلاني والمشدالي في بجاية، وعائلة ابن السكات بمدينة الجزائر، كما اشتهرت بسكرة بعلمائها أبي زيان ناصر بن مزني وعيسى بن سلامة وأبي عبد محمد عبد الله بقصيدته في المدخ النبوي:

دار الحبيب أحق من تهواها وتحن من طرب إلى ذكراها

وعرفت ما زونة بعدد الفقهاء أمثال موسى بن عيسى صاحب "ديباجة الافتخار" و"حلية المسافر"، وابنه "يحي صاحب "الدر المكنون" في النوازل أما مدينة الجزائر فقد اشتهرت بزاهدها وعالمها عبد الرحمن الثعالبي وتلميذه أحمد بن عبد الله الجزائري وتلميذه إبراهيم التارزي .[18]

---

[1] ليلى الصباغ، **معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث**، ط 4، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 1998/1997، ص ص5.-6.

[2] جاسم سلطان، **نحو وعي استراتيجي بالتاريخ (الذاكرة التاريخية للأمة)**، ط 3، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، المنصورة، مصر، 2007.

[3] مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، سورية، 2002، ص: 36.

[4] عبد الفتاح مقلد الغنيمي، **موسوعة المغرب العربي**، مكتبة مدبولي ، القاهرة، 1994، م3، ص ص : 14 – 15.

[5] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ج1، ص: 40

[6] شارل روبير أجرون، **تاريخ الجزائر المعاصر**، تر: عيسى عصور، منشورات عويدات، بيروت، 1982، ص:2.

[7] ناصر الدين سعيدوني، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)** ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص: 29 -30.

[8] المهدي البوعبدلي، **الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي (الحياة الثقافية في الجزائر)** ، ج ت: عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2013، ص: 157.

[9] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 41.

[10] أحمد بن سحنون الرّاشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني** ، تح: الشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص: 14..

[11] ناصر الدين سعيدوني، ((الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولاية المغرب العثمانية (الجزائر- تونس - طرابلس الغرب))، **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية** ،مجلة فصلية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الرسالة 318، الحولية 31، عام 1431هـ/ 2010م، ص: 12.

[12] علي تابليت، **بحوث في تاريخ الجزائر (الفترة العثمانية)**، دار ثالة، الجزائر، 2014، ج1، 12.

[13] ناصر الدين سعيدوني، ((الأوضاع الاقتصادية...))، مرجع سابق، ص: 12.

[14] حول هذه الشخصية أُنظر: عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحديث** ، ط3، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1983، ص: 268.

[15] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص: 44.

[16] المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص: 157.

[17] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 47.

[18] نفسه، ص ص: 44 - 45.